الحسن البصرى

رئيس المدرسة الفلسفية الأولى فى الإسلام

للأستاذ حسين على الداقوق

لم تمض على تأسيس مدينة البصرة حقبة طويلة من الزمن حتى تسنى لها مناهضة مدينة الأبلة (١) القديمة والتغلب عليها من جميع النواحى المدنية حين نسى الكتاب ذكر ما فى تلك المدينة من أحوال الحضارة ومعالم العمران . كما حدث على نفس الشاكلة تغلب الكوفة على الحاضرة طيسفون والسيطرة عليها

غدت البصرة ثغر العراق المزدهر ، وميناءه المتطور الزاخر بصناعتها وزراعتها ونشاط تجارتها . وبضروب فعالياتها الفكرية . فقد أنجبت المشاهير من رجال الفكر الإسلامى ، وقامت فيها المدارس العلمية والأدبية التى ضمت إليها هؤلاء المشاهير . نشأت فيها مدرسة النحو بوجهها الخليل بن أحمد ، وظهرت فيها ألوان من الأدب تمثلت فى كتابات ابن المقفع والجاحظ . وفى بيئة البصرة تثقف ابن الهيثم ، وبشر واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، والنظام بمذهب الاعتزال . وألف إخوان الصفا جميعهم الفلسفية . وفى هذه البيئة أيضا وضع أسس الصوفية كبار أعلامها مثل رابعة العدوية والحسن البصرى وغيرهما ممن نبغوا فى مختلف مجالات الفكر . ليست لدينا — ويا للأسف — وثائق تاريخية وصفية جمعها أنصار الحسن البصرى وطلابه لنتبين منها تفاصيل سيرة الرجل ، سوى نتف من ملاحظات ، أو شتيت من المذكرات دونها عنه أعوانه أمثال قتادة وابن عون ويونس وأيوب ، ومنتثرات من المعلومات تلقاها فى كتب المحدثين مثل ابن سعد ، وفى مصنفات المؤرخين والمفسرين كابن قتيبة والطبرى ، وفى كتابات المتكلمين كأبى عمرو الجاحظ (٢) وفى كتب المترجمين كأبى نعيم وغيرهما من المصنفات

(١) احتلها عتبة بن غزوان . وكان موقعها على رأس الخليج الفارسى. ولوضحت رواية البتانى صاحب دائرة المعارف بأن عتبة بن غزوان بنى البصرة على بعد أربعة فراسخ من مدينة الأبلة ، ولو أخذنا المسافة التى قطعها الخليج الفارسى بالانسحاب نحو الوراء من زمن بناء البصرة حتى الوقت الحاضر لاستطعنا الحكم على أن موقع الأبلة كان فى منطقة (الحويزة) الحالية

راجع عنها مراصد الاطلاع لابن عبد الحق طبعة إيران ، والطبرى ٤ ج ص ١٥٠ — ١٥١ ؛ وابن العبرى فى تاريخ مختصر الدول ص ١٧٤ وابن حوقل فى كتاب سورة الأرض ص ٢٣٧

نشأته

ولد أبو سعيد الحسن بن يسار البصرى بالمدينة عام ٥٢١ (٣) وكان أبوه يسار فى الأصل من سكان مدينة ميسان (٤) قرب البصرة . وقد سبى خلال عام ١٢ هـ إبان حملة خالد على العراق (٥) فنقل مع من نقل من ميسان إلى المدينة حاضرة العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، وغدا هناك مولى لزيد بن ثابت الصحابى (٦) وكانت أمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبى (ص) (٧) نشأ الحسن بوادى القرى (٨) وشب فى كنف على بن أبى طالب (٩) ، وعمر (١٠) (؟) وتتلمذ على أنس بن مالك ، ولقى سبعين من البدريين (١١) ، كما أخذ عن حذيفة بن اليمان (١٢) وعمران بن حصين الخزاعى (١٣) وعاصر عددا كبيرا من الصحابة فأرسل الحديث عن بعضهم وسمع من بعضهم (١٤) ، وكان قد أظهر ذكاء لامعا منذ صغره ، فقد حفظ القرآن وهو دون سن الأربع عشرة سنة ثم كبر ولازم الجهاد ولازم العلم والعمل (١٥)

h Ziya Ulken Islam Dusuncesi p 110

(٣) ابن سعد ٧ ج ص ١١٤

(٤) اسم كورة واسعة كبيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط ، قصبتها ميسان (راجع معجم ياقوت وكتاب الجبال والأمكنة والمياه للزمخشرى . المطبعة الحيدرية فى النجف ١٣٥٧ هـ) وراجع

Le strange the lands of the Eastern Caliphate p. 43

وهناك صعوبة كبيرة فى تثبيت موقع كل من (ميسان) (ومقار) لما فى المراجع التى بين أيدينا من الاضطراب ، ولكن يرجح أن موقع مدينة ميسان هو قرية (المزير) الحالية

(٥) انكلوبيديا الدين والأخلاق مادة الحسن البصرى

(٦) انكلوبيديا الاسلامية ، مادة الحسن البصرى

(٧) ابن حجر العسقلانى : تهذيب التهذيب ٢ ج : طبعة الهند ١٣٢٥ هـ

(٨) ابن سعد ص ١١٤

(٩) الزركلى : الأعلام مادة الحسن البصرى

(١٠) ابن الجوزى : صفة الصفوة ٣ ج ص ١٥٣

(١١) ابن النديم : الفهرست ص ١٨٣ طبعة Flugel

(١٢) المكى : قوت القلوب ٢ ج ص ٨٨

(١٣) جواشونصة فلسفة ابن سينا ص ٩ ترجمة رمضان لاوند (دار العلم للملايين)

(١٤) ابن الجوزى : المرجع السابق ص ١٥٩

(١٥) الذهبى : تذكرة الحفاظ ١ ج ص ٦٧ الطبعة الثانية

استقر الحسن فى الأبلة (١٦) ، فالبصرة حيث كان المركز الثقافى الإسلامى خلال العهد الأموى (١٧) . وفى عام ٣٥ هـ شد الرحال إلى المدينة ، وعندما عاد إلى البصرة فى غضون سنى ٣٧ — ٤١ هـ تعقب المناقشات التى احتدمت بين أصحاب الرسول واحتكم فيها . واشترك فى الجهاد فحارب فى جبهة كابل ، وبعدما رجع من الجهاد عارض خلافة يزيد ، واجتلب نحوه الأنظار (١٨) بما أوتى من حدة الذكاء وحسن البيان ، ومهابة وجمال فى خلقه وخلقه ، فوقع من أنفسهم أسنى مقام وأجل موقع

اشتغل الحسن موظفا عند الأمويين ؛ فكتب للربيع بن زياد والى خرسان فى عهد معاوية (١٩) . وتقلد منصب القضاء فى البصرة مدة من الزمن إبان خلافة عمر الثانى ، ثم استقال منها (٢٠) ولم يأخذ على قضائه أجرا (٢١) . واعتكف فى أحد مساجد البصرة يقوم بالوعظ والإرشاد والتدريس والتوجيه ، ويشارك غيره فى كثير من الفعاليات الأخرى كما سوف نرى

حياته السياسية :

يبدو للانسان أن القدرية كانت أول مدرسة فلسفية فى الإسلام ، وأنها كانت قد اقترنت (أكثر مما انطبعت) بفلسفة سياسية فى ذلك العصر . بحيث أنها بدأت تعدو عن كونها فلسفة مجردة ، مطلقة ، غاية انفسها ، وأخذت تهدف إلى ارتياد العقل ، وتحرر الفكر وإعطائه قيمته الحقة ، وبالتالى مقاومة السلطة الحكومية آنذاك . فحمل ذلك الأمويين على التنكيل بأنصارها والفتك بمروجيها ، فذهب عدد غير يسير من نوابغ ذلك العصر ضحايا هذا الاضطهاد السياسى . أذكر منهم عمر المقصوص أستاذ الخليفة معاوية الثانى حين وثب عليه بنو أمية وقالوا : أنت أفسدته وعلمته ، فطمروه ودفنوه حيا (٢٢) ،

كذلك انصبت نقمة الاضطهاد على نابغة آخر من معاشرى الحسن البصرى وهو معبد الجهنى ، على أنه جاهر بالقدر فى مدينة البصرة ، فأذاقه الحجاج الوالى الأموى مر العذاب ثم قتله بطلب من عبد الملك بن مروان (٢٣) . وكان معبد من السابقين فى القول بالقدر ، يذكر عنه الذهبى بأنه كان قدريا وتابعيا صدوقا (٢٤) قتله الحجاج عندما اشترك فى ثورة عبد الرحمن بن الأشعث . وقد كان كذلك غيلان الدمشقى قدريا وخطيبا مصقعا فأمر هشام بن عبد الملك بقطع يديه ورجليه (٢٥) ومثل به وصلب على باب دمشق (٢٦)

وهناك نصوص تاريخية كثيرة تثبت قدرية الحسن .. فيقول المقريزى : إن معبد الجهنى وعطاء بن يسار سألا الحسن البصرى « إن هؤلاء — يريدان الأمويين — يسفكون الدماء ويقولون إنما تجرى أعمالنا على قدر الله » فقال الحسن « كذب أعداء الله » فافهم الحسن بهذا ومثله (٢٧) لم يكن الحسن يحمل العقيدة مجردة عن العمل ، ولم يأل جهدا فى الدفاع عن مبدئه والإفصاح عن آرائه بشجاعة ، وقد أمضى حياته يصارع مشاكل شتى دون أن يكترث لها مع أنه كان بمقدوره ، أن ينال العز والجاه والرغد والرفاه . فالمتصفح لكتاب أبى نعيم (حلية الأولياء ج) يجد أنه قد ترفع عن هبات الأمويين ، وأبدى شجاعة منقطعة النظير فى رد المظالم ، تارة بتبيان وخامة العاقبة وطورا بالتنديد بالروادع الدينية ، ولم يستهدف من ذلك غير الإصلاح الاجتماعى العام ، فرفعه ذلك إلى موضع التقدير والإجلال لدى أغلبية الجماهير

ذكر الشهرستانى (٢٨) وكثير غيره بأن الحسن اتهم بالقول فى القدر ، والحقيقة أنه كان كذلك ، بل إنه كان رئيس القدرية (٢٩) ، ورأس حرية الارادة ، والأكثر من ذلك أنه

(٦) ابن سعد : نفس المصدر

Nicholson A literary history of the Arabs p 222
h Ziya op Cit pp — —

(١٩) تهذيب التهذيب لابن حجر ص ٢٦٣

h,Ziya Mld

(٢١) راجع ابن سعد فى الطبقات ٧ ج وحلية الأولياء لأبى نعيم
(٢٢) ابن المبرد : نفس المصدر ص ١٩١ وكتاب المنزلة لزهدى حسن جاد الله القاهرة ١٩٤٧ ص ٣٤ ... ٣٥

(٢٣) القريزى : الخطط ٤ ج ص ١٨
(٢٤) الذهبى : ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ٣ ج ص ١٨٣
(٢٥) ابن نباتة : سرح العيون ص ١٥٧ ... ١٥٨
(٢٦) ابن قتيبة : المعارف ص ١٦٦
(٢٧) القريزى : الخطط ٤ ج ص ١٨١ ... ١٨٢
(٢٨) الشهرستانى : الملل والنحل ص ٣٢ طبع ليدن
(٢٩) القمى : الكنى والالقاب ٢ ج ص ٧٥ مطبعة العرفان صيدا ١٣٥٨ هـ

جهر بمخالفته استخلاف يزيد بن معاوية (٣٠) من دون أن يتخوف عاقبة الأمر ، على حين أن الشعبي وابن سيرين لم يجرءوا على إبداء رأيهما بصراحة (٣١) . وكان من أهم أسس عقيدته السياسية اتباع الأصول الإسلامية الأولى ، ومعارضته الخلافة الأموية الوراثية ، والاعتقاد بمبدأ الانتخاب للخلافة (٣٢) ، بيد أنه لأسباب لم نتحقق منها تماماً ، رفض الاشتراك بثورة ابن الأشعث عام ٨١ — ٨٢ هـ ، بالرغم من المظالم التي كان يقترفها الحجاج ، وبالرغم من اشتراك زملائه بها كعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير ، ولعل ذلك كان بسبب اعتقاده الجازم بعدم نجاح الثورة ، أو أنه ما كان يسوغ الحرب وسفك الدماء بين الإسلام مهما كانت أسبابها الموجبة ، وذلك للصلة الوثيقة بين تصوفه وآرائه السياسية ، إذ لم تكن أية حركة من حركاته أو فعالية من فعالياته من قبيل الصدفة والعرض . ومع العلم أنه كان ضد سياسة الحجاج إلا أنه لم يقم بأية حركة ثورية أو عصيان مسلح ضده ؛ لأن الإسلام عند الحسن واحد ووحدة ، وأن هذه الوحدة تستند إلى وحدة الحق والإيمان ، وأن كل حركة ينجم عنها التصدع في هذه الوحدة ، وإن كان مبعثها الحق فهي ليست بأسلوب صحيح يركن إليه ويتوسل به

والمعروف عن الحسن البصري أنه عاش بين ٨٦ — ٩٥ هـ موضع ريبة موظفي الحجاج الذين صاروا يتحرون دقائق أعماله ويترقبون تصرفاته ؛ حتى اضطر إلى الاختفاء والتواري عن الأنظار . وفي عام ٩٩ هـ تقلد منصب القضاء في عهد عمر الثاني ثم استقال منه . وفي ١٠١ هـ انتقد بلهجة لاذعة في إحدى مواعظه الشهيرة حركة ابن المهلب التي قامت ضد الأمويين (٣٣) غير أنه لم يسلم في سلوكه هذا من التهجم عليه خلال حياته ،

(٣٠) دار المعارف الإسلامية مادة الحسن البصري وفجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٢٢٨

(٣١) أحمد أمين : نفس المصدر ونفس الصفحة

(٣٢) انسكلوبيديا البريطانية مادة الحسن البصري

h ZIYa Ulken op cit

فذكر عنه أنه كان يلقى الناس عابساً ووجوم ويتصنع الرياسة . وروى عن تلميذه ابن أبي العرجاء أنه لما قيل له لم تركت صاحبك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة ؟ قال إن صاحبي كان مخلطاً ، كان يقول طوراً بالقدر وطوراً بالجبر ، وما أعلمه اعتقد مذهباً دام عليه (٣٤) ويقول عنه تلميذه أيوب السختياني أن انفصال الحسن من القدرية كان خوفاً من السلطة الحاكمة ، وأن عدم اشتراكه مع ابن الأشعث في الثورة كان خوفاً من أن تذهب عنه وظيفته الموجهة إليه . كذلك انتقده ابن سيرين لأنه يرد الكبيرة ولا يرى الخلود في النار أبداً (٣٥)

هذا ولم يكن الحسن في عقيدته السياسية مخالفاً من نوع صاحب الزنج في الثورة على النظام الاجتماعي ، ولا مثل جان دارك في الدفاع عن استقلال الوطن ، إنما كان أقرب مثيل إلى الباباپيوس التاسع في بعض جوانب تصرفاته ، وبأبي العلاء المعري في جوانب أخرى . وكان في عصره من هذه الناحية نسيج وحده . ويرجح أن كفاحه كان محدداً بحدود صوفية معينة ، وباعتبارات دينية واجتماعية أخرى تمسك بأهدابها ، وجهد في السير على مقتضاها . وقد أوصى ابنه عبد الله أن يحرق كتبه ففعل ما أوصاه به والده (٣٦) ، لذلك لم يرد إلينا منه إلا النزر اليسير الذي ذكرناه فأشكل على الباحث تحقيق أمره ، ولم يوف في التدقيق عنه حقه ، فنستميح القارئ الكريم عما يبدو من المقال من سطحية وضآلة مادة ، فعسى أن نكون به حافزين . وداعين إلى دراسة طرف من أطراف التراث الإسلامي أو شخصية من شخصياته ، لم تتكشف حقائقه مفصلة سافرة على ضوء المباحث القائمة على المنهج التاريخي العلمي الحديث

لبعث صلة

حسين علي الدراقوني

(٣٤) الكنى : الكنى والالقاب ٢ ح ص ٧٥

h. ZIYa Ulken op cit

(٣٥) ابن سعد في الطبقات